النبش في القبور

«٢-٢»

عبدالستار خليف*

(١٤)

في مدخل البلدة ، تقف المدرسة الإلزامية كاليتيم ، وحيدة ..بعيدة عن بقية الديار ، آيلة للسقوط بين يوم وآخر ، على رؤوس الأبرياء الصغار . تذكرت التلميذ الناحل البدن محمود الصفطاوي ، رفيقي منذ الصغر على مقعد الدرس . كنا نجلس معاً طوال اليوم.

في الصباح كان يجد صعوبة في القفز من فوق مصرف المياه للوصول إلى بوابة المدرسة الصغيرة ، في أحيان كثيرة كان يسقط في المياه الضحلة وتبتل ثيابه وكتبه والكراريس..

خلف المبنى تبدو نخلة حبيب شاهقة الارتفاع ، كانت تحمل البلح الأصفر الحلو المذاق . في أثناء الفسحة كنا نذهب معاً لجمع الثمرات الناضجة المتساقطة على الأرض اليابسة..

الآن ماتت النخلة ، سقط السعف الأخضر والعراجين مع العاصفة ، أصبحت تقف يابسة بلاحراك ، فوقها تنعق الغربان . ومات رفيق الدرس بعد مشوار طويل .. توفي بسرطان المعدة.

(١٥)

بدأت الحارة الواسعة تظهر ـ الجهيرة ـ بجوارها بيت المهجرين الصخري ، على مقربة منه قمينة الطوب المحروق ، تقف على حافة مصرف مياه المزروعات القريبة من البلدة.

في تراب الجهيرة لعبت. تمرغت.. سهرت الليالي القمرية مع الصبيان والبنات نلعب:

ـ الثعلب ، فات ، فات ...

في وسط الحارة ، مستطيل ضوء الكلوب ينبعث من دكان بقال القرية الوحيد • قلت : المُطبَّق ينير دكانه .. لكن مرافقي قال عكس ماتوقعت :

ـ رحل إلى المدينة ، وحل محله عبدالمحسن عميرة .

ومصمص شفتيه في لوعة وصمت .

الزمن غيَّر كل شيء ..

الزمن ...

(١٦)

النهار يفر منهزماً أمام فلول الظلام الزاحفة على مبان القرية الطينية ، الكلاب تنبح على المارة وعابري السبيل والغرباء . لم أعد أعرف أحداً من الأجيال الجديدة . هيه . الصغار كبروا وصاروا رجالا . منذ زمن طويل لم تأت . لماذا هذا الصمت ؟! دوَّار حضرة العمدة تهدم . عريش العنب الأخضر الممتد من بوابة السور وينتهي عند سلالم المنزل ، لم يعد له وجوداً . أين غرفة التليفون أبو منافللى ؟ وغرفة السلاحليك والحجز ؟ والعم قدورة عامل التليفون ، الباشكاتب كما كان يحلو له أن نلقبه ـ أحيل إلى المعاش ـ يعمل الآن في مكتب صغير للبريد .

عرجنا على المكتب ، استقبلنا الرجل بالترحاب ، في هذه الغرفة الضيقة المكتظة ببعض شبان البلدة ، يتوسطهم عبدالسلام المحمودي ، المشهور عنه تقليد أصوات وحركات أعيان القرية بإتقان .

سألني العم قدورة في لطف ولين :

ـ تشرب كوب من الشاي الأسود الثقيل ، أو نسيت شربه منذ زمن ؟

أجبت برجاء :

ـ لاتتعب نفسك ، لقد تعودت على شرب الشاي الخفيف ..

أصر الرجل العجوز قائلا وهو يتحرك عن مقعده بصعوبة :

ـ سأصنع شايكم أنتم يا أهل البندر ...

هيه .. أين أيام زمان ؟! كان دوَّار حضرة العمدة يعج بالرجال والأعيان من أهل بلدتنا والغرباء . والعم قدورة يمسك زمام الأمور . حضرة الباشكاتب . التليفون والسلاحليك من أهم مظاهر العمدية والضبط والربط بالبلدة .

ارتشفنا الشاي الساخن اللذيذ في الأكواب الصغيرة جداً .

عندما أصبحت خارج جدران الغرفة المعبقة برائحة التبغ والمعسل والجوزة ، تذكرت عبارة عبيط البرادلوا التي رددها كثيرا للعم قدورة عندما يغتاظ منه . كان يصيح في وجه الرجل :

ـ أنت أجير عند العكومة أم البوكس فورد ياقدورة ..

ثم يركض هارباً..

(١٧)

في الساحة التي تقع أمام بيتنا القديم ، تقف شجرة النخيل التي غرستها في زمن البراءة ، اليوم .. ارتفعت بعلو أسطح الديار . شجرة التوت ، ذبلت وماتت وهي واقفة . أسفلها ينام جرو صغير . كنا نتسلق فروعها لنحصل على حبات التوت الأبيض اللذيذ ..

الآن .. ماتت .

وماتت معها ذوات بنت البحراوي.

(١٨)

... وقفت متوارية خلف ساق الشجرة ،

سألتني في حيرة وخوف :

ـ ماذا ستفعل ؟

لم أجب.. لم أجد لها الجواب عندي .

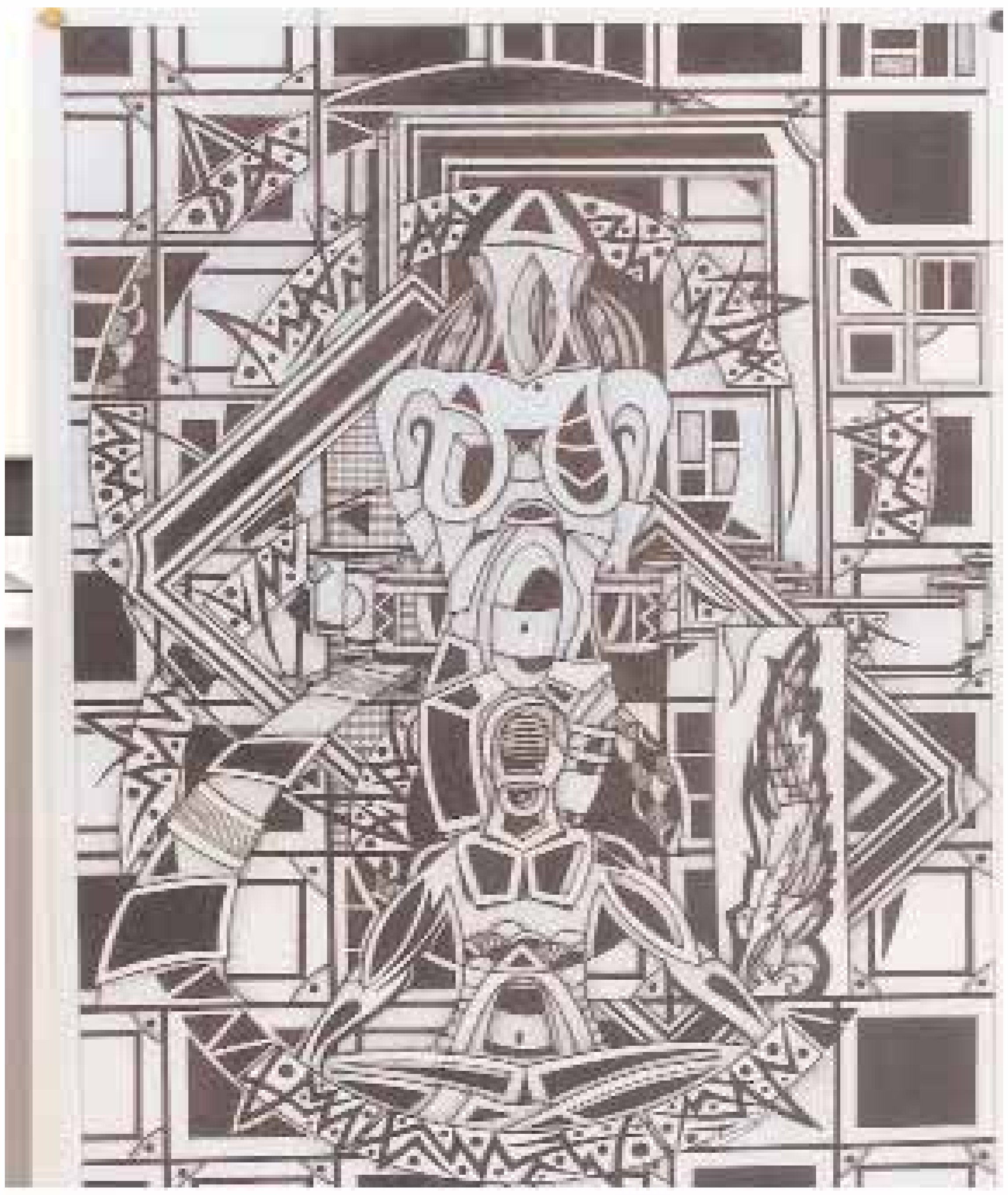

■ اللوحة للفنان طلال الزدجالي

عادت تلح عليَّ :

ـ لابد أن تجد طريقة لتنقذني...

(١٩)

سألني مرافقي وهو يشير إلى البيت القديم :

ـ هل ستقيم هنا ؟

لم أجب ، أنا لم أحزم أمري بعد ، أردف متسائلا :

ـ هل نبحث لك عن مسكن آخر جديدا ؟

أجبت بصوت قاطع :

ـ لا ..

سألني :

ـ وأين ستقيم ؟!

أجبت :

ـ أفكر بالعودة ...

سأل بذهول :

ـ العودة !!

هززت رأسي مستطرداً :

ـ الليلة ..

رد قائلا وهو لايكاد يصدق :

ـ الليلة ، الليلة... لم غيرت الإتفاق . قلنا سوف تمكث معنا ، البلدة في احتياج إلى عمدة ، وأنت الرجل المناسب لمنصب العمدية .. إنها بلدتك ، لها دين في رقبتك ..

اعترضت قائلا :

ـ لم تعد بلدتي . أنا غريب هنا . ليست لي جذور فيها ، لن أقو على الحياة في أرض لفظتني ..

عرف مايدور بداخلي منذ أن وطئت قدماي تراب البلدة . قال بهدوء :

ـ مات الماضي ودفن في جبل الدلاشي . لن تجد من ينبش في القبور . الآن ، أصلك وقتك . الزمن تغير . كل شيء تغيَّر . أنا ، وأنت وكل أهالي البلدة...

(٢٠)

ترامى إلينا صوت شجار أمام دكان البقال ، سألت عن الخبر ، أجاب في تردد : شيخ البلدة الدهشوري يتشاجر مع البقال . ضحكت : ربما غالطه في الحساب . لكنه قال بإقتضاب : ليت ذلك .. وصمت . قلت بعد فترة : ماوراءك ؟! تكلم ... قال في حيرة ، لم أود إزعاجك بهذه الحادثة . لوزة بنت الشرقاوي ..وتلجلج صوته وتوقف عن الحديث . ماذا حصل لها ؟ هربت . مع من ؟ أجاب :

ـ فرج الدسوقي . الأجير عند البقال .

هتفت : يا ألطاف الله !!

(٢١)

... في الزمن البعيد صرخوا قائلين :

ـ دنست شرف البلدة كلها .

أنت عار علينا .

دم بنت البحراوي في رقبتك أنت وحدك ..

(٢٢)

... ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ أبوها حبس نفسه بالدار ، لم يبرحها . لايود الخروج خشية أن تطارده العيون الخبيثة . أخوها الأكبر خرج خلفها منذ أيام يبحث عنها في مدينة دسوق . أقسم لن يعود إلا بعد محو هذا العار الذي لحق بالبلدة كلها ، سوف يغسل شرف القرية المهدور في التراب والأوحال.. بالدم . لقد خطفها الغريب وهرب . هرب ..

(٢٣)

سألت:

ـ كيف تركتم الغريب حتى سنحت له الفرصة باختطافها ؟!

قال بهدوء :

ـ جاء الغريب على البلدة ، عابر سبيل . عمل أجيراً عند البقال في حظيرة المواشي . استطاع خلال أيام أن يتسلل بيننا ، يدخل نفوسنا. فتحنا له القلوب قبل أن نفتح الأبواب والنوافذ ..

عدت أسأل :

ـ ولوزة ماعلاقتها به ؟

أجاب :

ـ لوزة أحبها ، وبنت البلد تحب الشاب الغريب . طلب يدها في بادئ الأمر ، أهلها رفضوه . رفضوا طلبه لأنهم لايعرفون جذوره.. أصله من فصله.

سألت لأحثه على مواصلة الحديث :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لا أدري كيف أغواها وهربا معاً ؟!

ـ هل انتهت الحكاية عند هذا الحد ؟

ـ هيه.. بعض الأقاويل تروي عكس ذلك . إنه إغتصبها ، ثم إختطفها وهرب.

قلت : كل هذا يحدث أمامكم وأنتم تتفرجون !!

قال : كل شيء أضحى خراباً ..حتى النفوس .

كل البلدة في انتظار عما ستأتي به الأيام القادمة ..

(٢٤)

كان شيخ البلدة الدهشوري ثائراً على البقال الذي أوى الغريب ، ولم يعرف أصله ولا فصله . لقد جر على البلدة المتاعب ، كما جر عليها العار ، وأن حكاية بنت البحراوي التي ماتت ودفنت منذ زمن سوف تحيا وتخرج من القبور مرة ثانية .. ثم توقف عن الصياح واستدار وانصرف .

(٢٥)

... والثعلب ، فات ، فات.

(٢٦)

•• لن أفتح باب داري . لن أدخلها . كفى تقليب المواجع والأحزان ، يابلدتي الحزينة . سأرحل ، سأدفن كل شيء في أعماقي . ماض وحاضر ، وربما مستقبلي . طفولتي هنا كانت بريئة . سأحتفظ بها في أعماقي كما هي ، بالتراب الخصب المندى ، بالقلب الأخضر ، بالحياة العذبة ، الإبتسامة التي هربت من الوجه الصبوح وغاصت في أعماق بئر ساقية حبيب !!

(٢٧)

مع عسعسة الليل ، الأفران لم تشتعل . أين رائحة الخبز الساخن الذي خرج لتوه من بيت النار . القدور وهي تغلي وتفور فوق الكانون المشتعل ، ثم تفوح رائحة اللحم وتتسلل من الأبواب المواربة إلى أنوف المارة وعابري السبيل ..

هيه ..الكلبة تنام في الأفران !!

دلالة على قحط الأيام في بين جدران الديار .

(٢٨)

في ضوء مستطيل الكلوب الشاحب ، جلس بعض الصغار في حلقة واسعة متلاصقة من أجساد الصبيان والبنات . من خارج الحلقة تدور حولهم طفلة نحيلة البدن وهي تنادي :

ـ الثعلب ، فات ، فات..

يرددون وراءها في صوت واحد :

ـ وفي ذيلة سبع لفات .

تعاود الحدو :

ـ والصحن الأخضر ...

يرد عليها من يجلس في الدائرة :

ـ دندش لون ..

تسأل :

ـ أحمر عل أخضر ؟

يجيبون معاً :

ـ دندش لون ..

تواصل الطفلة الحداء بصوت منغم :

ـ والدبة ..

يستكملون :

ـ وقعت في البير ..

تسأل في حيرة :

ـ وصاحبها ؟!

يرددون في حماس :

ـ راجل خنزير ..

تسأل في حزن :

ـ مافات عليكم الديب السحلاوي ؟

يجيبون في أسى من الأعماق :

ـ فات ، فات ، وفي ذيله سبع لفات ..

تواصل الحداء بنغمة مختلفة عما سبق :

ـ بعت جواب لصحبتي ..

يستكملون :

ـ وقع مني في سكتي ..

تسأل الطفلة في حيرة :

ـ مالقتهوش ؟

يرددون في صوت واحد مرتفع :

ـ لأ...

تستحلفهم :

ـ وحياة جدتي ..

يصيحون معاً :

ـ لأ ، لأ ، لأ...

(٢٩)

الصوت يتلاشى من أذني كلما ابتعدت خارج الديار ..

بدا القمر والجداول وصرَّار الليل وأنين السواقي واضحاً في السكون الهادي المخيم على كل الكائنات . شعرت بأنني أحسن حالا . انخفض ضغط الدم وهدأت دقات القلب الحزين ، خف الصداع الذي يكبل رأسي . استقر النبض بصورة منتظمة ، بعد أن ارتفع وانخفض من فرط التوتر والقلق والشعور بالذنب والأحداث المتلاحقة التي طفت على السطح بسرعة مذهلة ، بعد أن ماتت وغمرها النسيان في زوايا الذاكرة !!

(٣٠)

... والثعلب ، فات ، فات .

وفي ذيلة سبع لفات ..

(٣١)

على مفترق الطرق ، سألني وهو يودعني ، ويشد على يدي :

ـ هل ستعود ؟!

عندما لم أجب ، عاد يقول برجاء :

ـ نحن في حاجة إليك .. فهل أنت في حاجة إلينا ؟

بحثت عن إجابة ، لم أجد نجمة واحدة تبرق في السماء .

نظر إليَّ في صمت ، وأنا أسحب يدي برفق وهدوء من راحة يد رفيق الطفولة ، وابتعد ، أهرول ، أركض .. أهرب مرة أخرى ..■

* كاتب وروائي مصري